

الحيلة الروائية بين العربية والأردية: دراسة مقارنة
رواية "سمرقند" ورواية "فردوس برين" نموذجًا

**Narrative Trickery between Arabic and Urdu
Novels: A Descriptive Comparative Study
Novels "Samarkand" and "Firdous e Bareen" as
Case Studies**

براء خالد هلال

باحث بالذكوراه في النقد الأدبي،

بكلية اللغة العربية في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

Abstract

The "trick" has been a central theme in Urdu novels, defined linguistically as "achieving the permissible through the impermissible." Tricks, crimes, and secret organizations, both historical and contemporary, have ignited the imaginations of storytellers, crafting intriguing tales filled with excitement and adventure. This study compares one of the oldest and most famous Urdu novels, "Firdous e Bareen" by the Urdu novelist Abdul Haleem Sharar, with the novel "Samarkand" by the Lebanese writer Amin Maalouf, which explores the story of the same secretive organization, the Nizari Ismaili sect founded by Hasan bin Sabbah. The study examines the elements of

constructing the trick in both novels, focusing on aspects like time, place, characters, and plot. It concludes that the Lebanese writer Amin Maalouf was influenced by the text of the Urdu novel and attempted to invalidate the dramatic scenes within it while adhering to recorded historical events. In this novel, I followed the method of descriptive comparison.

Key words: Urdu novels, Arabic Novels, Comparative literature, tricks.

مدخل:

الرواية التاريخية أكثر من مجرد سرد للأحداث بقالب قصصي شيق، بل هي محاولة تفسير نفسي للأحداث، لم يحدث وكيف حدثت؟ ومحاولة للتبرير أو توجيه أصابع الاتهام لشخص أو التاريخ الحقيقيين أو الافتراضيين "تُعبر بشكل أكثر مباشرة عن الواقع التاريخي ونقاط التحول لدى المجتمع والإنسان من خلال إعادة سرد التاريخ وإعمال خيال الروائي في الأحداث"⁽¹⁾. كانت الرواية التاريخية أول ما بدأ به الروائيون الناطقون بالعربية أو بالأردنية على حد سواء من أنواع الرواية ولكن النادر القليل من الكتاب من أفلح في تسخير أحداث التاريخ لخدمة سياق الرواية بقالب مرن سلس متجانس.

وشكلت "الحيلة" في الروايات الأردنية المحور الأساسي لحبكة الرواية، و تعرف الحيلة لغة بأنها "التوصل بما هو مشروع لما هو غير مشروع"⁽²⁾. وقد كانت حيل وجرائم والتنظيمات السرية المعاصرة والتاريخية تشعل أذهان القاصين ليسردوا منها حكايات مشوقة ممتلئة بالإثارة والمغامرة. تتعرض هذه الدراسة لمقارنة إحدى أقدم الروايات الأردنية وأشهرها عن أحد أشهر التنظيمات السرية في التاريخ الإسلامي المتمثل بطائفة الحشاشين النزارية الباطنية التي أسسها حسن بن الصباح، وهي رواية (فردوس برين) للروائي الأردني عبد الحلیم شرر، ورواية "سرفند" للأديب اللبناني أمين معلوف والتي تتناول حكاية الجماعة نفسها.

بطل رواية "فردوس برين" أحد الواقعيين في حبال هذه الفرقة وتتحدث الرواية عن الحيل والألاعيب التي كان يسلكها هذا التنظيم السري الباطني في تجنيد الأتباع وغسل أدمغتهم بالفلسفة والتوريط وادعاء علم الغيب و وعدهم بـ (الفردوس الأعلى) الموهوم وهو العنوان الذي اتخذته الرواية في نسختها العربية. وكنت في بداية العمل على هذا البحث أعتمد على ترجمتي الخاصة للنص الأردني للرواية إلى أن اهتمت إلى ترجمة عربية بليغة لها بقلم الأستاذ "جلال السعيد الحفناوي"⁽³⁾ ومراجعة وتقديم الأستاذ "سمير عبد الحميد ابراهيم"⁽⁴⁾ فاعتمدت هذه الترجمة الصادرة عام 2001.

بينما تمتد رواية سمرقند على أربعة فصول وبطلها هو الشاعر الفارسي عمر الخيام ولكنه أفرد فيها فصلاً طويلاً عنونه بـ (فردوس الحشاشين)⁽⁵⁾، تناول فيه شخصية حسن بن الصباح مباشرة، وتطرق إلى الحيل والألاعيب التي كان يستخدمها في تجنيد الأتباع وغسيل الأدمغة.

"سمرقند" التي طبعت لأول مرة عام 1988م باللغة الفرنسية⁽⁶⁾ قبل نشر نصها العربي، رواية أدبية تركز على جودة اللغة والوصف بالدرجة الأولى رغم أنها تتحدث عن الحب والدين والسياسية والمكر والخداع والحيل، تتوزع أحداث الرواية بين حقبتين زمانيتين متباعدين شيئاً ما، لكن الكاتب استطاع أن يدمج بين الزمانين، ليخلق بذلك حبكة رائعة وسلسلة لروايته. "ترسم الرواية حالة تنافر"⁽⁷⁾ يجسد طرفها الأول حلم عمر الخيام بمرصد وحديقة وورد مع امرأة وكأس. أما طرفها الآخر فيمثله سعي من أطراف متعددة إلى الملك والجاه والسلطة وما يمتد من ذلك إلى عنف وكراهية وتقتيل.

كتب شرر روايته "فردوس برين" سنة 1899م؛ فقدم لكتّاب الرواية في شبه القارة الهندية نموذجاً طيباً للرواية، إذ تعد فردوس برين أو (الفردوس الأعلى) من ناحية الشكل الروائي من أحسن رواياته، رغم أنها من ناحية فن كتابة الرواية

التاريخية لم تحقق النجاح المطلوب⁽⁸⁾، وذلك قبل تسعين عاماً تقريباً من نشر رواية "سمرقند".

فردوس برين كانت "حجر الأساس للشكل الروائي في الأدب الأردني"⁽⁹⁾، فعناصر الرواية هنا تتجمع لتعطي تأثيراً كاملاً في القراء؛ إذ نلاحظ أن الحبكة الروائية، ورسم الشخصيات، وتصوير البيئة، والتعبير عن العواطف وفلسفة الحياة، كل هذه العناصر تتجمع لتعطي التأثير الذي يمكن أن تتصف به الرواية الدرامية .

عرض شرر في فردوس برين تجارب "حسين" بطل روايته، مما يضفي على الرواية خصوصية درامية نلاحظها في تجدد العمل من خلال الشخصية، والعمل يغير من صورة الشخصيات، في حين تنوع أبطال العمل في رواية سمرقند.

الزمان:

تتحدث كلا الروائيتين عن نفس الحقبة الزمنية تقريباً وهي الحقبة التي ظهرت فيها طائفة الحشاشين في الشرق وامتدت على مدى مئتي عام، لكن بفارق أن رواية سمرقند تتحدث عن مرحلة تأسيس الطائفة على يد حسن الصباح، في الزمان الذي عاش فيه عمر الخيام في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه في القرن الخامس الهجري، وهو الزمان الذي بلغ فيه سحر المشرق أوجهه، مما حدا بالروائي لكتابة هذه الرواية لوصف جاذبية المشرق وجماله، وجاءت الأحداث لتخدم هذا الهدف.

أما رواية (فردوس برين) فتتحدث عن مرحلة سقوط طائفة الحشاشين على يد هولوكو، في القرن السابع الهجري. ولكنها "لا تلقى الضوء على الأحوال والظروف الاجتماعية لذلك الوقت، ولو لم يذكر شرر السنة والمكان لما عرف القارئ أن هذه الرواية تنتمي إلى زمن مضى! فلا يمكنك إذن تحديد الزمن الذي عاش فيه أبطال الرواية إلا من خلال بعض الأسماء المشهورة. إذ تركز الرواية على الخيط القصصي والحبكة الدرامية للأحداث وجاء الوصف ليخدم الحدث والحيلة.

تأثر رواية سمرقند برواية فردوس برين واضح، إذ حاول المؤلف أن يتحدث عن بداية القصة التي حكى الرواية الأردنية نهايتها، ويصور الكاتب كيف بدأت هذه الطائفة معتمداً اعتماداً كبيراً على الأفكار الواردة في الرواية الأولى.

المكان:

تتنقل حيل الروائيتين على حيز جغرافي متقارب ولكن تختلف مواطن

الأحداث الرئيسية

الأماكن المتشابهة:

قلعة الموت: تعد قلعة "الموت" قرب جبال ألبرز أهم مكان يجمع بين الروائيتين فهي المكان الذي سطا عليه حسن الصباح في رواية سمرقند وأسس فيه قلعته الحصينة التي هاجم منها الدولة السلجوقية، وبدأ فيها بناء فردوسه المزيف الذي يخدم فيه أتباعه ورعاة السوق ليجندهم لخدمة مخططاته. وصفت "سمرقند" كيف سطا الصباح على هذه القلعة، عندما اشتراها بثلاثمائة ألف دينار بعد تهديد صاحبها، ووصفها الكاتب وصفاً جغرافياً صحيحاً بأنها "حصن فوق صخرة على ارتفاع ستة آلاف قدم تحيط به جبال جرداء وبحيرات منسية وممرات جبلية غير مفضية، وليس في مقدور أكثر الجيوش عديداً الوصول إليه إلا رجلاً إثر آخر، ولا أقوى المجانيق ملامسة أسواره"⁽¹⁰⁾، مبتعداً عن الوصف الخيالي للقلعة الوارد في ثنايا (فردوس برين).

والموت هي المكان الذي اكتمل بناؤه وتشيده في رواية "فردوس برين" بعد مئة وخمسين عاماً فصارت فيه القصور المطلية بالذهب والزرجد والفضة التي تحاول إقناع المخدوعين أنها قصور الفردوس، وتسكب فيها أنهار الخمر واللبن وتردد فيها الببغاءات على مداخلها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر 73⁽¹¹⁾، وهي المكان الذي سيق إليه "حسين" بطل الرواية ليلتقي بجبيته "زمر" إكراماً له على سلسلة الجرائم التي نفذها لصالح الحشاشين، والتقى فيه ب"طور المعنى" وكيل (إمام القيامة)، وهو حفيد حسن الصباح ووريث

قلعة الموت، والتي سيداهمها هولاءكو وبلغان خاتون في نهاية الرواية، ليقضوا على جميع المحتالين الذين ورد ذكرهم في الرواية بعد أن تتفكك جميع الحيل والألغاز التي شكلت خيطاً مترابطاً منذ بداية القصة.

أصفهان: كانت أصفهان ميداناً رئيساً للأحداث والحيل في رواية "سمرقند" حيث أنما كانت عاصمة السلاجقة ومقر ملكشاه والتي كان الصباح يتردد إليها وينفذ حيله فيها، وكانت أصفهان مسرحاً مهماً في رواية "فردوس برين" حيث التقى (حسين) بـ(كاظم الجنوبي)، أحد عناصر التنظيم السري وظلت أصفهان مكاناً عابراً يمر منه "حسين" في طريقه وتنقلاته ويستخدمه محطة في كل مرة.

أماكن مختلفة:

سمرقند: في رواية "سمرقند" هي المكان الأول الذي يبدأ فيه الكاتب نسج حيل الرواية على يد الطالب ذي الندبة الذي سيصبح أحد دعاة الحشاشين، بينما لم تكن مسرحاً للأحداث في رواية فردوس برين.

حلب: لعل حلب هي المقابل الموضوعي لسمرقند في رواية "فردوس برين" حيث كانت هي المقر الذي يقيم فيه الرجل الذي يجلب المؤامرات ويجيك الدسائس والمدعو "علي وجودي"، ومنها ينطلق "حسين" لتنفيذ عملياته وإليها يعود.

وكانت في رواية فردوس برين أماكن أخرى جزءاً من الحيل التي رسمها علي وجودي مثل مدينة "الخليل" التي اعتكف فيها حسين أربعين يوماً بعد خروجه من جبل "الجودي" ومدينة "نيسابور" التي ذهب إليها لقتل عمه "الشيخ جلال الدين النيسابوري"

قراقورم: هو المكان الذي كان مقراً لبلغان خاتون والتي ذهب إليها حسين حاملاً رسالة زمرد ليدها على قاتل أبيها. ومن هناك بدأت حبكة الحيل في الرواية تتفكك وتظهر الحقائق أمام عيون حسين.

الشخصيات:

تفاوتت الروايتان في وصف الشخصيات وتحديد ملامحها تفاوتاً كبيراً، رغم أن هناك قواسم مشتركة كبيرة بين الشخصيات في كلا الروايتين، ففي كل منهما هناك حبيب وحببية يكونان طرفاً في المؤامرة والحيلة والواحد منهما محتال أحياناً أو ضحية أحياناً أخرى.

تجلت عبقرية الروائي عبد الحليم شرر في رسم شخصيات رواية (فردوس برين) عبر الحوارات تارة، وعبر الوصف تارة أخرى، وجاءت الشخصيات متناسقة مع نفسها ومناسبة للحوارات والأدوار المنوطة بها، غير أن الكاتب اختار جميع الشخصيات من بيئة واحدة هي جماعة الحشاشين، ولم يدخل عناصر أخرى في القصة تظهر الواقع الذي عاشت فيه هذه الشخصيات وحجمها بالنسبة لمحيطها، كما أنه لم يتكرر شخصيات ثانوية لإضفاء أحداث جانبية للرواية على عادة الروائيين المعاصرين .

بينما كان أمين معلوف أوسع أفقاً في تحديد أبطال الرواية الذين كانوا عناصر من الحشاشين، أو كانوا أمراء وملوكاً و وزراء وأناس عاديين يمثلون توجهات الدولة السلجوقية المختلفة، ففيهم عمر الخيام ونظام الملك الفارسيان السنيان، وفيهم السلاجقة الأتراك، وفيهم الفرس من أتباع الطوائف الباطنية، وفيهم شخصيات سمرقند المتنوعة.

حسين وعمر الخيام:

أبداع الكاتب في ترسيخ سداجة بطل الرواية المطلق "حسين" في ذهنية القارئ، والذي انطلت عليه الحيل واحدة بعد الأخرى، حتى صار قلبه في غشاوة عن الحقيقة منذ فقد وعيه أول مرة، وبدأت تأتيه رسائل محبوبته زمرد من عالم البرزخ، وما كان ليؤمن بذلك لولا الإرهاصات السابقة والخرافات الشعبية المنتشرة عن منطقة جبل ألبرز إلى أن بدأ يعتنق هذه الأكاذيب ويؤمن بها ويرتكب في

سبيلها أشنع الجرائم مثل قتل مرشده الروحي وعمه شقيق والده، (نجم الدين نيسابوري).

ظل حسين هو المخلص في حبه والصادق في إيمانه الذي يستعد للتضحية بكل شيء والذهاب إلى أبعد مدى في سبيل ما يحبه وما يعتقد، حتى ولو كان عليه أن يرتكب جريمة .. ورغم أنه أصبح في خضم الرواية مجرماً خطيراً، لكن القارئ يظل متعاطفاً معه مؤمناً بإخلاصه وسداجته لأن ضميره يؤنبه، ويعلم أنه يقدم على جرائم فظيعة، لكن مرشده الباطني علي وجودي، يبرر له تلك الجرائم ويوهمه بأنها قربات إلى الله إلى درجة أنه آمن أنه يعيش على الأرض تارة وفي الفردوس الأعلى تارة أخرى، وعندما تكشفت له الحقيقة لم يعد يريد أن يتقبلها، وعندما أدرك جرائمه أصر على الانتقام، ورد الصاع صاعين لمن خدعه حتى لو اضطر حسين للانضمام لجيش هولوكو.

اختار عبد الحليم شرر بطلاً افتراضياً لروايته؛ لأن مدار الرواية على الحكمة التي دارت في عقل الكاتب وحده؛ أما أمين معلوف فقد اختار بطل روايته شخصية حقيقية، أشهر من نار على علم، له تاريخ معروف وسيرة موثقة، لا يمكن التصرف كثيراً في أحداثها ومآلاتها. صور معلوف عمر الخيام بالصورة التي تتحدث عنها كتب التاريخ، بأنه فيلسوف لا يمانع من الاستماع إلى أي رأي، ويقول كلاماً غامضاً يحتمل تفسيرات شتى، ولم يجعله ضحية ساذجة للأعيب الحشاشين، وإن كان قد ساهم مساهمة كبيرة في إنقاذ حسن الصباح أكثر من مرة، وظهر ذلك في الرواية على لسان نظام الملك الذي قال مخاطباً الوزير أبا طاهر:

"- أتعرف من المسؤول الحقيقي عن مصائب سمرقند ومصائبنا جميعاً؟ إنه هذا الرجل الذي رافقك إلى هنا!

- عمر الخيام!؟

- إنه الخوجة عمر هو الذي شفع لحسن الصباح في اليوم الذي كان فيه بمقدوري أن أحصل على موته" (12).

زمرد وجيهان:

لم يفت الروائي عبد الحلیم شرر أن المرأة الجميلة هي أقوى سلاح تستخدمه الطوائف الباطنية، وأن جل عقائد الباطنية تتمحور حول حرية الوصول إلى المرأة، إذ تشكل ركيزة أساسية في دعايتهم وحيلهم وأساليب تضليلهم. جعل الكاتب المرأة الفاتنة هنا "زمرد" هي السبب بالإيقاع بحسين في كل ما وقع فيه، وركز على فتنتها وجمالها ودلالها ووصفها الحسي والمعنوي، وكيف استخدمت رهينة قامت بتمرير حيل الباطنية مرغمة، وهي حائرة بين ميزان الخير والشر، تقوم بالفعل وتدعو الله أن لا يتم، لأنها مرغمة على ذلك .

بينما كانت جهان تلك الجارية التي وقعت في حب عمر الخيام في سمرقند لا تمنع في الدخول في حيل وألاعيب تركان خاتون للحفاظ على مكتسباتها كجارية.

علي وجودي وحسن الصباح:

برز إبداع (عبدالحليم شرر) جلياً في رسم شخصية الداعية الباطني علي وجودي، من خلال الحوارات الفلسفية المغرقة في اللعب بالكلمات والتي كان لها الدور الأبرز في تمرير الحيل الباطنية التي وردت في أثناء الرواية، وتبرير بشاعة نتائجها، وعملية غسيل الدماغ التي أجراها على بطل القصة الساذج "حسين" .. حيث يتمكن كل مرة من إيهامه بعلم الغيب، وإيهامه أن له روحاً تعيش في العالم النوراني تتابع سكنات بطل الرواية وحركاته وتقود خطواته بينما كان في الحقيقة يتمكن من معرفة هذه التفاصيل من العيون التي يثها.. ونجح الكاتب في الحفاظ على توازن هذه الشخصية المحتملة إلى آخر لحظة قبل الانهيار حين كان الخنجر مسلطاً على نحره بيد ضحيته الأشهر حسين، وهو مستمر بتمرير كذباته

وخداعه، إلى أدرك أن الأمر جد، ففقد توازنه وظهرت شخصيته المهزوزة على حقيقتها. كانت شخصية علي وجودي هي الشخصية الأبرز في رواية فردوس برين بالنسبة لهذا البحث لأنها هي التي تصنع الحيلة وتمررها وتضمها إلى شبكة من الحيل الأخرى التي تصنع حبكة الرواية، وتجعلها رواية مترابطة حتى تصل إلى العقدة، قبل أن تنهار هذه العقد جميعاً دفعة واحدة عند فك أول لغز، تماماً كشخصية حسن الصباح في رواية سمرقند. وإن كان حسن الصباح يبدو ساذجاً جداً في حواراته ذكياً في تصرفاته، وذلك لأن كاتب الرواية كان يريد سرد الأحداث التي مرت والحيل التي لجأ إليها الصباح عن طريق حوارات إخبارية بينه وبين عمر الخيام.

الحبكة ونسج الحيلة:

شكلت الحيلة في رواية فردوس برين بيضة القبان في الرواية، وكان الهدف من الرواية في مجملها الحديث عن تلك الحيل بطريقة تبهر القارئ، وتجعله يشارك في تحليل الأحداث ومحاولة اكتشاف من يقف وراءها. حيث بدأت الرواية بإصرار زمرد على أن تسلك طريقاً مربعاً ثم تلا ذلك حادثة اختفائها المفاجيء، ورسائلها المشبوهة الغامضة التي كانت طعماً لحسين ليقع في كل ما وقع فيه، ليعتقد القارئ طوال الرواية أنها عنصر أساسي في الحيلة ليستنتج في النهاية على أن الأمر غير ذلك، وكان وراء الأكمة ما وراءها من تخطيط محكم من كبار طائفة الحشاشين.

وتمر أحداث الرواية بشيء من التشويق والحوادث المرعبة التي يستنتج القارئ أنها كانت لإضفاء لمسة وجو من العمل التنظيمي على حبكة القصة، مثل إجبار حسين على التوجه إلى جبل الجودي وجب الخليل والإقامة في كل منهما أربعين يوماً، وأحياناً يتساءل القارئ هل يوقع هؤلاء القوم بضحياتهم هذا أم يساعدونه، حينما قتلوا حاكم الخليل وشنوا هجوماً على المدينة لفكاه من الأسر.

تعتمد الرواية على حيل وألعاب مترابطة تتصاعد بشكل درامي، وتشابك خيوطها إلى درجة أن تشكل واقعاً في ذهن الضحية، يصعب التصديق بأنه خرافي وأنه محبوبك بعناية للإيقاع به حيث يسلم حسين بأن لـ "علي وجودي" شخصيتان، إحداهما مادية والأخرى نورانية روحانية وإلا كيف له أن يعرف كل هذه الأمور التي يفترض أنها غيبية بالنسبة له، حتى يؤمن الضحية بفلسفة مرشده الجديد بأنه مثل المسيح والخضر.

علي وجودي الذي حبك كل الحيل في الرواية قناص للفرص، يعرف كيف يحكم شبابه ثم ينقض على ضحيته في اللحظة المناسبة، ليطلب منه الطلب الشرير المستحيل المغلف بقالب لطيف من المصلحة مثل طلبه من حسين أن يقتل عمه ومرشده "نجم الدين النيسابوري" دون أي ذنب، ودون أن يشعر بتأنيب الضمير، في سبيل تحقيق الهدف النبيل الأسمى في ذهنية بطل القصة؛ وهو اللقاء بمحبوبته زمرد ذات الرسائل الغامضة في العالم النوراني.

ظل هذا الحلم الذي يراود حسينا هو العصا والجزرة التي استخدمها علي وجودي ليستجره إلى تحقيق ماتريده جماعة الحشاشين. وهنا تبرز شخصية المحتال الأخرى الذي عرفها الأدب الشرقي، بعيداً عن شخصية المحتال المحببة مثل أبي الفتح الاسكندري التي اخترعها بديع الزمان الهمذاني في مقاماته، والتي تسعى إلى تأمين رزقها بحيل لطيفة، أو محتالي ألف ليلة وليلة؛ كدليلة والزبيق وحسن شومان وسواهم. حيث أن هذا المحتال المدعو علي وجودي وغيره من أبطال القصة الحشاشين مثل شيخ الجب الذي لقبه الكاتب بـ "طور المعنى" والفتى ذو التاج ركن الدين خورشاه و كاظم الجنوبي، كان دورهم الاحتيالي في الرواية غير محبب أبداً بل هو من ذلك النوع الإجرامي الذي تأباه النفس، والذي يستخدم الجريمة والحيلة لتمير معتقدات مزيفة وخرافات دينية وهدم دولة وقتل الرجال الصالحاء في الأمة والمجتمع. وقد نجح الكاتب الهندي في حبك هذه الحيل وأقنع القارئ بها إلى حدٍ ما.

ولكن مما يؤخذ على الكاتب سرده السريع لوصف اللجنة المزيفة التي أنشأها الحشاشون في قلعة الموت، والتي تشابه الفردوس الأعلى، إذ لم يكن الوصف مقنعاً جداً بأنه يمكن لبشر ذلك الزمان عمل تلك الأشياء بطريقة تنطلي على البشر، كالقصور المبنية من الدر والذهب والزرجد، وأتجار الخمر واللبن، والطير التي تردد العبارات القرآنية (سلام عليكم طبتم).

ويرى الأستاذ سمير عبد الحميد ابراهيم - رحمه الله - في تعليقه على الرواية أنها حملت في بدايتها الأسرار التي تجعل منها "رواية جذابة"، وتستمر هكذا حتى تنكشف الأسرار في نهاية الرواية، وهذه الأسرار هي التي حملت عناصر الرواية إلى المركز، وهذا المركز هو الذي يضم البناء الروائي، ففي فردوس برين أسرار أساسية تبدأ بغياب "زمرد" حبيبة حسين وزوج المستقبل، فتلف هذه الأسرار في تلايبيها حسيناً الذي يتلقى رسائل (زمرد) من العالم الآخر فيعمل طبقاً لأوامرها وينضم إلى فرقة الحشاشين الباطنية، عندئذ تتجمع عناصر متنوعة: قوة هذه الفرقة الجبارة، ووسائل السيطرة على المعتقلين بمبادئها، وهي وسائل محيرة، وبعض الشخصيات العجيبة لهذه الفرقة، والمساوئ والخراب الذي أحدثته هذه الفرقة، ثم ارتكاب حسين لجرائمه الشنيعة بعد أن سقط في أيدي هذه الفرقة، و اللجنة المزيفة، ثم القضاء على هذه الفرقة وانكشاف جميع الأسرار، وهكذا تكتمل جميع العناصر التركيبية للرواية كلها بانسجام في جو ممتع تلفه الحيرة أحياناً.

وفي فردوس برين قصر روايته على النشاط الداخلي للفرقة الباطنية دون ذكر شي عن الأحوال والظروف السياسية لتلك الفترة، ولا عن حكام تلك الفترة، ولا عن التدابير التي اتخذت للقضاء على هذه الفتنة، فالقاري لا يرى شيئاً عن تأثير الفرقة على حياة ذلك العصر، وتأثيرها على الحياة الاجتماعية ونهج الحياة العامة آنذاك وأفكار الناس المتعلقين بالفرقة الباطنية، فضلاً عن أن القاري يلاحظ بعض الأمور المتضاربة؛ فحسين وزمرد يعتقدان تماماً في وجود الحور؛ لدرجة أنهما

يشاهدان بعض النسوة فيعتقدان بأنهما شاهدا "حوريات من الجنة فيصابان بالإغماء، وحسين يصل به الوهم إلى درجة أنه يجد خطاب زمرد فيظل يعتقد بأنه مرسل إليه من الفردوس الأعلى، دون أن يعمل فكره مرة واحدة، لكن حين تصدر له الأوامر من خلال الخطاب بالعودة إلى بيته يبدأ في التفكير فيما حدث. وعلى كل حال لم توضح الرواية أسباب غرق حسين وزمرد فيما غرقا فيه من وهم، والإبقاء على أسرار الفرقة الباطنية دون الكشف عنها إلى آخر الرواية نال رضا النقاد والأدباء في شبه القارة.

أما في رواية (سمرقند)

فيكاد يختلف نسج الحبكة اختلافاً كاملاً، لأن هدف الكاتب الأساسي هو إظهار البلاغة الأدبية والتركيز على جاذبية المشرق وسحره وثقافته وفلسفاته، والحديث عن علمائه ورموزه وشعرائه وتراثه ولم يول كثير اهتمام الحبكة الأحداث والحيل وكأن الكاتب يتهرب من تهمة تقليد الرواية الأردنية التي كتبت قبل تسعة عقود.

جاءت معظم الحيل في الرواية مفككة باهتة مكشوفة وصفية، غرضها سرد الأعياب الفرقة الباطنية بطريقة لا تحاول إثارة القارئ لكشف اللغز، بل يكاد القارئ يفهم كل شيء منذ أول نظرة، ولم يكن لتلك الألاعيب خيط واحد يربطها، تنفك عقده لحظة واحدة لينهار ذلك البناء المزيف. ولكن اعتماده على قصة الفردوس المزيف تثبت تأثير الرواية العربية بالرواية الأردنية تماماً وخاصة حين حاول نقض ما جاء فيها من حيلة استخدام المواد المخدرة والحشيش لتخدير المستهدفين بهدف إيهاهم بالنقل من العالم السفلي إلى عالم البزخ، حيث حاول معلوف نفي أن يكون هذا هو السبب لتسمية الطائفة بالحشاشين، رغم إقراره بأنهم كانوا يفعلون ذلك، حيث تحدث عن براعة حسن الصباح في النباتات المخدرة واستخدامها للسيطرة على الأتباع⁽¹³⁾. مما يثبت أنه يحاول أن ينفي شيئاً جاء في الرواية الأولى.

بدأ الكاتب حديثه في مطلع الرواية عن محتالي سمرقند الذي "ينشلون الكحل من العين" دون أن يفسر كيف يفعلون ذلك أو يضرب له مثلاً. وحيل الطالب ذي الندبة الذي يجلد الفلاسفة والمتكلمين بحجة أن هذا مخالف للعقيدة لكي يغطي على نفسه أنه داعية للحشاشين.

تركان خاتون في رواية سمرقند والتي تعادل بلغان خاتون في رواية فردوس برين، حيث أن كلتاها صينيتان وابتتا ملوك، تحاولان الحفاظ على ملك أبيهما وتسلكان في سبيل ذلك شتى الحيل، لكن تركان خاتون في سمرقند لم تجد بأساً في التآمر مع الحشاشين للتخلص من نظام الملك الذي أغرى السلطان السلجوقي واحتال عليه ليعبر النهر ويدمر ملك أبيها ويستولي على سمرقند.

المجرمون الحشاشون في رواية سمرقند شجعان، يقتلون الضحية ولا يهربون بل ينتظرون الموت ويرحبون به بشغف وهم يقولون مرحباً بالجنة، مثل العراني الذي اغتال نظام الملك. على عكس حسين في فردوس برين الذي يهرب بعد كل عملية ينفذها.

حاول معلوف رسم شخصية المحتال عبر توصيف جسدي وسرد للحيل والأحداث في خضم الحوارات بطريقة فجأة تكاد تفقد توازن الحوار المنطقي، ويكون الهدف منها السرد وإفهام القارئ، وكرر الكاتب كثيراً حيل الصباح أنه كان يتنكر بمهئة درويش⁽¹⁴⁾ والرجل الجاحظ العينين⁽¹⁵⁾ في محاولات لترسيخ الصورة النمطية للمحتال في ذهنية القارئ.

قضية التأثير والتأثر:

الرواية الأردنية والعربية كلاهما ناشتتان، رغم أن البيئة العربية والأردنية تشتركان بنفس الثقافة الشرقية الإسلامية، ولكن يكاد يكون تأثير الأدب الأردني في الأدب العربي في العصر الحديث شبه منعدم إلا في حالات نادرة، أما تأثير الأدب العربي في الأدب العربي يقتصر على النصوص الإسلامية القديمة ولا ينسحب على الشعر والرواية والمسرح في العصر الحديث.

لا يخفى من خلال قراءة رواية سمرقند تأثرها برواية فردوس برين، رغم أن الكاتب اللبناني يمنح أحياناً لإبطال بعض الأفكار التي وردت في الرواية الأردنية، لكن في الوقت نفسه لم يستطع الكاتب العربي أن يخرج من عباءة الرواية الأردنية، فجعل عمر الخيام وجيهان نظيران لحسين وزمرد، مجبهما وبوقوعهما في حبال الجماعة.. وجعل ترکان خاتون التركية الصينية الملامح نظيرة لبلغان خاتون التركية الصينية الملامح في فردوس برين واللذان ثقافتان عن ملك أبيهما. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل نرى الشيء نفس في الغلام ذي الندبة في سمرقند نظيراً للفتى ذو التاج في الفردوس الأعلى.

وهكذا يظهر تأثير الرواية الأردنية جلياً في ذهنية الكاتب العربي رغم أنه حاول أن يخفف من تهويلات وخرافات الرواية الهندية وقيم روايته على أساس روائي شبه دقيق تاريخياً وعقلانياً وجغرافياً. وحين تم تحويل رواية (سمرقند) إلى مسلسل تلفزيوني عربي فإنه اعتمد في مشاهدته التصويرية وحبكته على مشاهد فردوس برين أكثر من اعتماده على الرواية العربية.

الخاتمة:

قليلة هي دراسات المقارنة بين الرواية الأردنية والعربية وأرى أنه لا بد من بذل الجهود في هذا الجانب لإثراء الثقافتين. فقد تأثر السرد الروائي والقصصي العربي بالحكايات الهندية والفارسية وقصص ألف ليلة وليلة حتى أن المقامات العربية نشأت في الشرق واقتبست من حكاياته وحيله وثقافته بدءاً من شخصية المحتال التي اخترعها الهمذاني تحت مسمى أبي الفتح الاسكندري في مقاماته الشهيرة وكذلك قصص المحتالين في ألف ليلة وليلة.

لا شك أن الأدب العربي والأدب الأردني الآن آداب غنية تتجه نحو النضج وبينهما تأثر ببعضها لا يخفى ويظل المجال واسعاً لتتبع آثار هذه العلاقة بين الأدبين الذين يستقيان من المنابع نفسها.

الهوامش

- 1 مفهوم الرواية التاريخية، ليلي العاجيب، موقع موضوع نت، 18 اغسطس 2016.
- 2 معجم لغة الفقهاء، مُجَدُّ رواس قلعجي، مُجَدُّ صادق قنبي، حرف الحاء، ص 189.
- 3 (جلال السعيد الحفناوي)، أستاذ اللغات الشرقية والحضارة الإسلامية المساعد في جامعة القاهرة، مصري الجنسية من مواليد كفر الشيخ 1960. ترجم العديد من الكتب والروايات الأردنية ، منها (صلصلة الجرس لإقبال) و (جناح جبريل لإقبال) و(سيرة الفاروق) لشبلي النعماني.
- 4 (سمير عبد الحميد إبراهيم)، دكتور اللغة الأردنية وآدابها، مصري الجنسية وخريج جامعة البنجاب في لاهور ، مواليد 1946، وتوفي عام 2019، درس في جامعة القاهرة وجامعة الإمام مُجَدُّ بن سعود الإسلامية.
- 5 رواية سمرقند، أمين معلوف، دار الفارابي، ص 103.
- 6 انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، "سمرقند (رواية)".
- 7 رواية "سمرقند" للكاتب أمين معلوف، مقال، سهام جبار، موقع ديوان العرب
- 8 رواية الفردوس الأعلى، عبد الحليم شرر، ترجمة جلال السعيد، المشروع القومي للترجمة، مصر، ص 5.
- 9 المصدر نفسه.
- 10 رواية سمرقند ، ص 121.
- 11 انظر رواية (الفردوس الأعلى) ترجمة جلال السعيد ، ص 71.
- 12 رواية سمرقند، ص 114.
- 13 انظر: سمرقند، ص 136.
- 14 المصدر نفسه، ص 17.
- 15 المصدر نفسه، ص 113.

المصادر والمراجع

1. الأدب المقارن، دراسة تطبيقية في الأدبين العربي والفارسي، مُجَدُّ السعيد جمال الدين، دار القلم، القاهرة، (1424هـ، 2003م).
2. الأدب المقارن، مُجَدُّ غنيمي هلال، دار العودة - بيروت، طبعة 13 (1978).

3. تحولات الدرس الأدبي المقارن، عباس عبد الحلیم عباس، الجامعة العربية المفتوحة، عمان، الأردن (2012).
4. تحولات الرواية التاريخية في الأدب العربي، مُجدُّ مُجدُّ حسن طویل، رسالة ماجستير مقدمة للجامعة الإسلامية في غزة، 2016.
5. الرواية التاريخية في أدبنا الحديث - دراسة تطبيقية، حلمي القاعود، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ، مصر (2008).
6. الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، الدكتور حسين هندي سالم اسماعيل، دار الحامد للنشر والتوزيع، العراق، (2004).
7. رواية الفردوس الأعلى، عبد الحلیم شرر، ترجمة جلال السعيد، المشروع القومي للترجمة، مصر.
8. الرواية من الحكمة إلى الطباعة، لورانس بلوك، دار الجمهورية للصحافة، مصر (2009).